أعوام التحولات الكبرى

قد يكون مبكراً جداً أن نتحدث عن ١٩٨٩ على أنها من أعوام التحولات الكبرى في التاريخ، ولكن الأحداث التي جرت فيها وبخاصة في أوروبا الشرقية ترشحها لأن تكون من سنوات التحول الأساسية بالنسبة للدول التي سوف تقصدها في الغد.

ويخطط لنا التاريخ أعداداً من هذه السنوات الحاسمة لا ينتهي عددها وبخاصة أن لكل أمة أو لكل مجموعة من الأمم سنوات التي تشكل تحولاً في مجرى تاريخها العادي.

وما التحول؟ إنه تخمر مجموعة من الدواعي والأسباب الداعية إلى التغيير وقد يكون سلمياً حتى درجة التطور العادي غير المحسوس. وقد يكون ثورياً كالبراكين تفجر الدمار أنهاراً. وإذا كانت التحولات الكبرى في التاريخ الحديث فإن طبيعة الحياة السريعة والسريعة جداً هي التي أكثرت خطوط المحطات لتغيير أوجه السير للمجموعة البشرية أو لقسم منها وقد ينعكس على الأخرى!

في الحرب العالمية الثانية كانت هناك محطات عديدة: دخول الاتحاد السوفياتي الحرب ضد الألمان، معركة العلمين، إنزال نورماندي. القنبلة الذرية في هيروشيما وخلال ذلك مؤتمرات طهران والقاهرة ويالطا ... كلها محطات عالمية. لأن العالم كله تأثر بها في سنوات متقاربة جداً.

في الحرب الأولى كانت المحطات أقل عدداً وسرعة. في القرن

الماضي نجد سنة ١٨٧٠ (سنة الوحدة الألمانية والإيطالية والحرب
السبعين بين فرنسا وألمانيا) سنة انقلابية، أو نجد سنة ١٨٤٨
سنة مثلها بسبب الثورات الأوروبية فيها كما نجد سنة ١٨١٥ التي
أعادت ترتيب أوروبا على يد ميترنيخ بعد أن قلبتها حروب
نابليون من سنوات التحول الكبرى...

وتقل السنوات بعد ذلك فلا نكاد نجد في القرن ١٨
سوى سنوات الثورة الفرنسية ١٧٨٩ وسنة الانفصال
الأمريكي عن انجلترا قبلها وظهور كتاب روسو العقد الاجتماعي!

ولو تخطينا بعد هذه التحولات "السياسية" على التحولات الأخرى
وسنواتها لوجدنا الكثير. اكتشاف الميكروب، اكتشاف الأمصال
ضد الجدري وضد السل. ظهور القاطرة وقوة البخار، اكتشاف
آلة النول/ كشف المطبعة... وأمثالها كثير. كلها تشكل/ محطات تحول في
التاريخ البشري...

منذ ١٤٩٢ وهي سنة تحول بشري ضخم بسبب اكتشاف
أمريكا بدأت التحولات السريعة تأخذ الشكل العالمي الذي يلف الكرة الأرضية
أما قبل ذلك فكانت سنوات "التحولات" تأخذ شكل المعارك
الحربية محدودة كما كانت محدودة بأقاليم محددة من جهة أخرى
وما أخذ منها الشكل العالمي كان بطيء التأثير بحيث يلمس البشر
بالتدريج وتتفاوت تأثيراته حسب الأوضاع المحلية والجغرافية
بخاصة - لكل قطر. أضف للمسافات حاجزها في انتشار
هذا "التحول" وضعف تأثيره! كما كانت أحياناً كثيرة
"دينية" ويجب أن تأخذ شكل العقائد لتنفذ إلى البشر كما لو كانت تسقى
الأرض من ساقية ما...

وإذا نحن تحولنا إلى التاريخ العربي وجدنا من سنوات التحول الكثير ... والأمثلة على ذلك لا تنتهي ومنها :

- هجرة الرسول الأعظم قبل ١٤٢٠ سنة كانت من سنوات التحولات العظمى في التاريخ لقد كانت (وما تزال) توجه وتؤثر في بواسطة الاسلام على مصير ألف مليون إنسان فوحد هذه الأرض من أقصى الفيليبين واندونيسيا إلى أقصى افريقيا العربية إلى من نذكر من في الافريقيتين وأوربا والشعوب الصينية والتركية.

- معارك : الردة ، اليرموك ، القادسية ، الفسطاط وقطانة ... أي فيما بين ١١ إلى ٢٠ هجرية كانت من بخاصة هذا النوع من السنين ... إنها لم تجمع العرب فقط على عقيدة واحدة ولكنها ثبتت أقدامهم وطاقتهم العالمية وطاقتهم الجغرافي من العالم وحددت مصيرهم إلى اليوم وجعلتهم أمة ذات دين واحد ولغة واحدة وأرض واحدة وتاريخ واحد.

- ١٧ هـ السنة التي منع فيها الخليفة عمر توزيع الأراضي المفتوحة غنائم وجعلها ملكاً للمسلمين جميعاً

- معركة الزاب ١٣٢ / ٧٥٠ م حددت مصير ما بين تونس إلى أقصى بلاد الترك وإلى الهند لمدة قرون . إنها سنة انتقال الحكم إلى العباسيين وظهور الخلافة العباسية

- سنة ١٢٧ هـ حددت مصير الأندلس والبحر المتوسط الغربي لمدة ثلاثة قرون . إنها سنة دخول عبد الرحمن الداخل إليها

- ١٣٤ / ٧٥٢ كانت سنة تحول كبير جداً في تاريخ الـ... إنها السنة التي عرف فيها العرب صناعة الورق . وكانت الورق سريراً من أسرار الصين . وبعد معركة ... التاريخ ما بين القوات الإسلامية والقوات الصين...

وقع أشخاص من الأسرى الصينيين في الأسر وعرف صاحبها أنهما كانا في القصر الإمبراطوري يعملان في الورق. فلما صنعاه له سرعان ما انتقل الاكتشاف من سمرقند إلى بغداد ثم قضى على ورق البردي في مصر - وكان اكتشاف البردي نفسه سنة تحول في تاريخ مصر القديمة - ومنها إلى المغرب والأندلس. وظلت أوروبا قرنين آخرين حتى عرفت سر الورق الذي أعطى الحضارة العربية ثم الحضارات العالمية الأخرى المادة الأساسية في الكتابة من صفحات لينة رخيصة سهلة التداول! إنها السر في وجود أكثر من مليون مخطوط في العالم من آثار أو بقايا آثار الحضارة العربية الإسلامية.

- سنة ابتكار علم الجبر والمقابلة من جانب العالم الخوارزمي أواخر القرن الثاني للهجرة كانت سنة انقلابية في التاريخ البشري. إنه ما زال مادة عمل للناس حتى اليوم وأساس علم من علوم البشر.
- سنة قام المأمون بتأليف فريقين علميين لقياس نصف قطر الأرض وقاسوه وتطابقت نتائجهما كانت من هذه السنوات.
- سنتا ١٤٨ و١٥٠ سنتا وفاة الإمام جعفر الصادق وأبي حنيفة وسنوات ١٧٦، ٢٠٤، ٢٤٢ سنوات وفاة كل من مالك بن أنس والشافعي وابن حنبل وانتشار كتب الموطأ والأم والمسند هي من سنوات التحول الكبيرة بدورها، إنها ما زال بمذاهب الناس في الدين إلى اليوم.
- السنوات التي ظهر فيها كتاب المناظر للحسن بن الهيثم، وكتاب الجبر والمقابلة للكرجي وكتاب القانون لابن سينا كانت من سنوات التحول الكبرى في تاريخ البشرية. الأول وضع أساس قوانين الضوء والثاني اكتشف الهندسة التحليلية التي نسبها الغربيون إلى ديكارت الفرنسي والثالث ظل كتابه القانون الطب حتى القرن السابع عشر وقد ظهرت جميعها في

القرن الحادي عشر (الخامس الهجري)

[illegible] مصر للفاطميين وبناء القاهرة كانت
سنة ٣٥٨هـ واستسلام
بدورها سنة انقلابية حددت مصير الشام ومصر والحجاز ومصر وليبيا
واليمن الى حد كبير لمدة قرن أو قرنين من الزمان حسب المناطق في الإطار
الفاطمي

- ٤٤٨هـ سنة ظهور المرابطين و٥٢٤ يوم ظهر الموحدون حددتا
مصير المغرب والأندلس معه لمدة تزيد على قرنين.

في سنة ٤٦٣ / ١٠٧١ كانت معركة ملازكرد في أرمينية وقد انتصر فيها السلاجقة
الترك المسلمون وأسروا لأول مرة (ولآخر مرة) الامبراطور البيزنطي
نفسه. وقد حددت هذه السنة الانقلابية مصير تركيا كلها فصارت
تركية مسلمة بعد أن كانت مسيحية يونانية.

معركة انطاكية سنة ١٠٩٧ ثم معركة احتلال القدس بعدها من جانب الفرنجة الصليبيين
كانت سنوات حاسمة وتحولات كبرى حددت مصير المشرق العربي بعدها
قرنين كاملين.

- معركة حطين سنة ٥٨٣ / ١١٨٧ كانت نقطة تحول كبرى. طردت التوسع الغربي
المسيحي في الشرق العربي وأعادته عربياً مسلماً في حين لم تستطع
كل معارك الأندلس وصقلية ذلك فبقيتا افرنجيتين مسيحيتين
الى اليوم

- معركة الزلاقة التي انتصر فيها المرابطون سنة ٤٧٦ / ١٠٨٢ على الفرنجة في
الأندلس أبقت المسلمين قرناً ونصف القرن في اسبانيا [illegible]
وأيدت ذلك معركة الأرك التي حققها الموحدون سنة ٥٩١ لكن معركة
العقاب ٦٠٩ / ١٢١٢ التي هزموا فيها أعادت الأندلس الى الفرنجة حتى
اليوم.

- نكبة بغداد سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ أنهت خلافة (على يد المغول) العباسيين

فيها وحولت مصير العراق كله الى المشرق حتى القرن السادس عشر.
ومعركة جالديران.

٦٦٠/١٢٦٢ كانت معركة عين جالوت التي أوقفت التوسع المغولي في [illegible] الأراضي الإسلامية وإلى الأبد وأبدا استقروا ثم ذابوا في المشرق الإسلامي بعد النكبات التي أدخلوها عليه.

٩٢٢-٩٢٣ / ١٥١٦-١٥١٧ وهما سنتا دخول العثمانيين إلى الشام ومصر ومنها إلى اليمن من جهة وإلى شمال افريقيا من جهة أخرى كانتا من سنوات التحول الكبرى. حددتا مصير المنطقة العربية أربعة قرون كاملة تحت الحكم العثماني التركي.

١٦٢٢ سقوط هرمز

١٥٠٩ معركة ديو البحرية بين المماليك والبرتغاليين حولت المحيط الهندي من بحر عربي اسلامي إلى بحر برتغالي هولندي ثم بحر فرنسي انكليزي فلم ينته هذا التحول حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية.

١٧٩٩ كانت سنة تحول في اليقظة العربية حولتها من عصر اليقظات الصغرى المحلية الى عصر اليقظة الواسعة أيام محمد علي.

١٥٢٩ كانت بدورها سنة تحول كبرى. لقد أعطت الأوروبيين لأول مرة امتيازات في الأرض العربية ما لبثت أنه تحولت الى تدخل ثم تحول التدخل إلى الاستعمار منذ ١٨٣٠ في الجزائر و [illegible] عدن ([illegible]) والخليج (تقريباً) الى الاحتلال الكامل بعد الحرب العالمية الأولى.

١٩١٦ سنة الثورة العربية التي أرادها القوميون العرب فجر القومية العربية وأرادها الاستعمار جزءاً من برامجه

هل استوفينا السنوات الانقلابية في تاريخنا؟ أبدا لم نستوفها وثمة من يريد أن يرى غيرها. والحق معه في الزيادة كما أن له الحق في التنقيص. أليس التاريخ كله وجهات نظر؟

عمر بلغور